

## عبد الرحيم الشيخ\*

### تحولات البطولة في الخطاب

#### الثقافي الفلسطيني (٢)\*\*

تتناول هذه الدراسة تحولات مفهوم البطولة في الثقافة الفلسطينية في حقبة ما بعد أوصلو متخذةً من مقولات محمود درويش الثقافية والسياسية، وبعض مقولاته الشعرية، نموذجاً بدئياً (archetypal model) لهذه التحولات التي تزامن تحولات كبرى في حقبة ما بعد الحداثة (المتأخرة) في العالم، لكن في فلسطين بصفتها مستعمرة ما بعد استعمارية. وهي إذ تقرأ مقولات درويش في السياق الفلسطيني الراهن، فلتستدعي، عبر قراءة أنسابية، نموذجاً ثقافياً آخر لتحولات البطولة صاغه المسرحي الألماني اللامع برتولد بريخت في مسرحيته ذائعة الصيت "حياة غاليليو".

وسياسياً، موضوع سجال أول فيه، ولا سيما في مقولته "البطل ملّ من دوره" التي تزامنت مع ظاهرة الشعراء الشباب، إلا إنه لا بد من الإشارة إلى التحولات ذات العلاقة بظهور بعض المجموعات الثقافية الشبابية بعد إطلاق مختارات مراد السوداني "خارج سياق النهر" في سنة ٢٠٠٥، وحتى اللحظة، وبعد مضي قرابة عقد من الزمان على إطلاق مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي مشروع "يراعات" في سنة ١٩٩٦ - كملحق ثقافي يورّع مع جريدة "الأيام" الفلسطينية كل أربعاء ويُعنى بأدب الصغار - الذي تولدت فكرته بعد توقف ملحق "نخلة الشبر" مع

#### I - الإعلام الجديد والأدب الجديد

##### فيما بعد سنة ٢٠٠٥

مع أن هذه الدراسة تتناول تحولات البطل في الثقافة الفلسطينية ما بعد أوصلو، وخصوصاً في السياق الشعري الذي يشكّل محمود درويش، جمالياً

\* أستاذ الفلسفة والدراسات الثقافية والعربية في جامعة بيرزيت.

\*\* هذه الدراسة مؤلفة من قسمين، ننشر هنا القسم الثاني منها، وكنا قد نشرنا القسم الأول في العدد ٩٦.

دعوى التجديد الجمالي الحالم بتغيير الأدب والعالم، هو المقولة السياسية التي ركزت على إعادة الاعتبار إلى غزة كجغرافيا غائبة في التاريخ والثقافة الفلسطينية، وإحداث إصلاح ثقافي مرافق للإصلاح السياسي، وتكريس وحدة الثقافة الفلسطينية.

أما مبادرة "فلسطين الشباب"، فهي مشروع ثقافي إعلامي ابتدأ منذ سنة ٢٠٠٧، ويصدر عن شركة "جيل للنشر"، وأسهه تيسير مصرية، ويتأسس تحرير مجلته "فلسطين الشباب" طارق حمدان، ويقدم برنامجه الإذاعي "فلسطين الشباب" سائد كرزون ونسرين عواد، بينما تتولى مهمة قيّمة "فيديو فلسطين الشباب" مي عودة. وتتكون لجنة المشروع الاستشارية من مبدعين شباب في مختلف الحقول، وتتجلى رسالته في العمل "نحو جيل من الشباب ينتمي للثقافة والفن والإبداع، وقادر على التعبير عن نفسه بحرية".

وفضلاً عن كون المبادرة مشروعاً إعلامياً يتعاون مع القطاعين العام والخاص الفلسطينيين لإنجاز رسالته، فإنها - في أهم مشروعاتها - تقوم على إصدار مجلة "فلسطين الشباب" الشهرية التي توزع في كل جغرافيات فلسطين التاريخية وبعض دول الجوار العربي، علاوة على نسختها الإلكترونية التي تُعنى بالإبداع الجديد في مجالات الكتابة والتصوير والمسرح، وقد برز من كتابها: طارق حمدان؛ سنابل الفار؛ أسماء عازيزة؛ علي مواسي؛ عمر زيادة... وغيرهم.

بدأ مشروع "بسطة كتابة" الذي أطلقه معن سمارة على صفحات ملحق "أيام الثقافة" الأسبوعي في جريدة الأيام الفلسطينية، في ١٩ كانون الثاني / يناير ٢٠١١ واستمر في واحد وأربعين حلقة حتى تاريخ ١٧ أيار / مايو ٢٠١١. واستهدف

جريدة "القدس" الفلسطينية، ويتنازع كل من عبد السلام خدّاش ومعن سمارة فكرة إطلاق المشروع في كنف مؤسسة تامر<sup>١</sup>، وسجلت المجموعات الثقافية الجديدة حضوراً متعدد الجوانب من حيث الأجناس الأدبية والموضوعات والمنابر: فتراوحت - من حيث الأجناس الأدبية - بين الشعر والرواية والنصوص الحرة والنقد، بينما غلب على الموضوع ظواهر أدب ما بعد الاستعمار (من حيث تحولات السلطة، والبنى الاجتماعية، وسياسات الذاكرة والنسيان، وحالة الفرد اغتراباً وتماهياً)<sup>٢</sup>. وهذه المنابر، فضلاً عن حضورها اللاف في المنشورات والمختارات والصحافة الفلسطينية والعربية والعالمية المكتوبة والمرئية والمسموعة، وبروز مبادرات لتأسيس دور نشر خاصة، تركزت في فضاءات "الإعلام الجديد"، من مواقع إلكترونية ووسائل تواصل اجتماعي متنوعة، وازداد الهوس بها بعد اندلاع موجة "الربيع العربي".

تتناول هذه القراءة، على نحو بانورامي، مجموعات أدبية هي: "جماعة تجريب" في غزة؛ مبادرتا "بسطة كتابة" و"بسطة إبداع"، وجماعتا "فلسطين الشباب" و"الملتقى التربوي الفلسطيني"، ومبادرة "فلسطين الشباب"، وموقعان إلكترونيان هما موقع "قديتا" في فلسطين ١٩٤٨، وموقع "شبكة قدس الإخبارية" في الضفة الغربية والشتات؛ دارا نشر هما: "دار الفيل" في القدس، و"دار راية" في حيفا.

انطلقت "جماعة تجريب" في قطاع غزة في سنة ٢٠٠٥، بمبادرة من علي أبو خطاب ونصر جميل شعث، ونُشر موجز بيانها التأسيسي في مختارات مراد السوداني "خارج سياق النهر"<sup>٣</sup>. ولعل أهم ما تضمنه البيان، وما تبدى، فيما بعد، من نتاجات المشاركين في هذه الجماعة، علاوة على

الناشطين في العمل المجتمعي في فلسطين.<sup>٦</sup> وفي سنة ٢٠١٢، بدأت هيئته العامة تضم دماء جديدة من الشباب (الذين تجمعهم صفة أخرى هي بروزهم ككتاب في ملحقات "يراعات" وأنشطة مؤسسة تامل للتعليم المجتمعي التي أشير إليها سابقاً)، وهم: سامر شريف؛ محمد حمدان؛ الحارث ريان؛ سلوى جرادات؛ محمود عساف؛ يحيى أبو الرب؛ حسن كراجة... وغيرهم. وتدور فكرة الملتقى على خلق تجمع شبابي ثقافي يشكل نموذجاً لمؤسسة بديلة تعمل بتمويل محلي فلسطيني، وتكون قائمة على التطوع، وتنادي بفكرة التعلم من التجربة، وتحمل فكر ورؤية التربوي منير فاشة. فضلاً عن هذه التجمعات والمبادرات الثقافية، لا بد من الإشارة إلى مراكز استقطاب ثقافي جاد برزت على الساحة الفلسطينية، وتساهم حالياً في صقل هذه التجارب عبر النشر والحراك الثقافي والإعلامي في صفحات الإنترنت عبر موقعين إلكترونيين بالغَي التأثير وعاليي الشعبية، هما موقع "قديتا"، وموقع "شبكة قدس الإخبارية".

تأسس موقع "قديتا" - الذي سمّاه مؤسسه علاء حليحل (والراحل سامي مطر) على اسم قرية قديتا الجليلية المهجرة غربي مدينة صفد المحتلة. في سنة ٢٠١٠، وكان المحرر المسؤول في حينه أنطون شلحت، بينما يدير تحريره، حالياً، كل من علاء حليحل وهشام نفاع.<sup>٧</sup> وجاء تأسيس الموقع كمبادرة احتجاجية على سياسات النشر التي تسيطر على المشهد الثقافي فلسطينياً وعربياً، وعلى ما تعانیه المضامين الشبكية من سرعة وسطحية، وما يكتنف ذلك من رداءة قد تُضاف إلى رداءة المنشور في حلته الأصلية - كما جاء في البيان التأسيسي للموقع - أي مقولات جذرية تتعلق بالمقولة

المشروع نشر نتاجات إبداعية متنوعة لكتاب شباب في حدود فلسطين التاريخية وخارجها بلغت أكثر من ستين مساهمة، وكان أبرز كتابها: طارق العربي؛ رائد وحش؛ جدل القاسم... وغيرهم. وانبثق عن هذه المبادرة مشروعان آخران: برنامج مصور يُبث في الإنترنت، بعنوان: "مطر على الرصيف" بُث منه عشر حلقات مع مثقفين فلسطينيين؛ مشروع "نوافذ - الجمعية الفلسطينية للثقافة والفنون" الذي أسسه معن سمارة مع أحمد الأشقر كمنبر ثقافي لإبداع الشباب، وقد أصدر ملحقاتاً يتيماً، وعقد مجموعة من اللقاءات الثقافية لمثقفين من أجيال متعددة في مواجهة مع الجيل الجديد. وفي مبادرة شبيهة، يقال إنها "أنشقت عن بسطة كتابة"، انطلق مشروع "بسطة إبداع" في شمال الضفة الغربية في ذكرى يوم الأسير الفلسطيني في ١٧ نيسان / أبريل ٢٠١٠ بعرض مسرحي تحول لاحقاً إلى "مبادرة شبابية انطلقت من مجموعة حوارات بين عدة أصدقاء عبر الفاييس بوك هدفها إبراز جميع ألوان الفنون والإبداع الشبابي" داخل فلسطين التاريخية وفي الجوار العربي.<sup>٨</sup> وتأسس هذا التجمع - الأقرب من سابقه إلى الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين - بمبادرة من محمد راضي ونداء عبد الجبار وروان أبو عرقوب ووثام كساب وجدل القاسم. وظهرت مساهمات هؤلاء الشباب وغيرهم في منشورات "دار الرقمية - فلسطين"، وفي مواقع التواصل الاجتماعي، وفي مختلف الأنشطة الميدانية من ندوات، ومسرح جوال، وأنشطة ثقافية متنوعة.

أمّا آخر هذه المجموعات، زمنياً، فهو "الملتقى التربوي العربي - فلسطين"، الذي تم تسجيله كجمعية أهلية فلسطينية - كما يفيد موقعه الإلكتروني - بهيئة إدارية من

"فلسطين الماضي والحاضر"، و"مناهج البحث في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية" التي استهدفت دراسة تمثيلات الهوية الفلسطينية في المواقع الإلكترونية التي تأسست في حدود فلسطين التاريخية وفي الشتات، والتي تعبر عن جمعية التجربة الفلسطينية، أكانت رسمية، أو شبه رسمية، أو أهلية.

وإذا كان موقع "قديتا" استحدث مساحة للكتابات المثلية الفلسطينية والعربية والعالمية، فإن موقع "شبكة قدس الإخبارية" - وهو "أول مجتمع إخباري فلسطيني تقوم عليه مجموعة من الشباب الفلسطيني يتخذون من الإعلام منبراً للتعبير الحرّ عن صورة فلسطين كاملة"<sup>٨</sup> - تميز بإفراد ملفات خاصة لم تكن موجودة من قبل في مواقع إلكترونية فلسطينية، ومنها ملفاً مكافحة التمرد في فلسطين، وحكايات البنادق وسنوات الرصاص الفلسطينية التي توثق وتقرأ تجربة الكفاح المسلح الفلسطينية، وتعيد الاعتبار إلى ثقافة المقاومة.

وقد أشير سابقاً إلى أن حركة نقدية جادة سبقت بعض هذه التجمعات الثقافية وزاملتها ونظرت لها، وتفاوتت بين أساتذة في جامعة بيرزيت ونظرائهم ممن يعملون في الأكاديمية الإسرائيلية، أو في الشتات. كما تجدر الإشارة إلى أنه تم تأسيس دارين للنشر من قبل مثقفين من الجيل الجديد، فقد أسس بشير شلش "دار راية" في حيفا في سنة ٢٠١١، بينما أسس نجوان درويش "دار الفيل" في القدس في سنة ٢٠١٢.

## II - متلازمة غاليليو على

### "المسرح" الفلسطيني

على الرغم من رغبة بعض المثقفين

الإبداعية العربية والفلسطينية، وتحولاتها، وسياسات النشر، من حيث الموضوع، والأشخاص، والجغرافيات، والميول... في نزوع ثوري واضح لا يعلن التمرد على الاصطافات السياسية والثقافية الحصرية والإقصائية فحسب، بل على حصرية الموضوعات أيضاً. وعليه، لم يكن غريباً على هذا الخطاب أن يؤمّن للموقع فرصة الخروج على "الجبين العام" الذي يكتنف المشهد في طرق موضوعات كالمثلية العربية، ومختلف النتاجات الأدبية، إذ خصص الموقع مساحة لافتة لها بالتعاون مع مؤسسة "القوس" للتعديدية الجنسية والجنسانية في المجتمع الفلسطيني.

أمّا موقع "شبكة قدس الإخبارية"، فأسس في سنة ٢٠١٣ مجموعة من الشباب الجامعيين هم: طارق خميس؛ صالح برقاي؛ هنادي قواسمي؛ خالد أبو عمر. وجاءت فكرة تأسيس الموقع الإلكتروني بعد النجاح الذي لقيه حساب الفايس بوك الخاص بالفكرة من حيث وحدة الثقافة الفلسطينية الميثاقية، وضرورة توحيد المصطلح الإعلامي والثقافي في مواجهة السياسات الصهيونية النافية للوجود الفلسطيني، وإعادة الاعتبار إلى الخطابات المههّشة في الخطاب الرسمي الفلسطيني، بصورة لافتة على المستوى السياسي (سياسياً بصورة لافتة، وثقافياً بصورة أقل ملحوظية) وبصورة أقل ملحوظية على المستوى الثقافي، وهي تتناول: جماهير الشعب الفلسطيني في فلسطين المحتلة في العام ١٩٤٨ (فلسطين التاريخية)؛ اللاجئون؛ الحركة الأسيرة؛ إعادة الاعتبار إلى المقاومة ثقافة وممارسة. ومن الجدير ذكره، أن اثنين على الأقل من مؤسسي هذا الموقع، تلقيا تدريبهما الأكاديمي في جامعة بيرزيت حيث استفادا من مساقات

فإن "الوظيفة الجمالية" لإبطال البطولة أو تفكيك البطل، تفقد، في الحالة الفلسطينية، معناها، فضلاً عن فقدان جدواها. فـ "البطل الجديد" يبدو كـ "بطل ذاتي" لا وجود له خارج مخيلة مَنْ ينظر له، وخارج أجندة السياسات الثقافية التي اتخذت من أوسلو سقفاً ثقافياً، علاوة على كونها سقفاً جغرافياً وديموغرافياً. وبالتالي فإن البطل الذاتي (hero as self) لم يحقق شعبية بين "الجمهور" الفلسطيني إلا لمن يتصورونه كذلك. وهذا ما تفيد به نظريات التحليل النفسي للمسرح في أي حال.<sup>٩</sup>

وللتقليل من حدة تأثير "الممثل" وقضيته في الجمهور، في مثل هذا السياق، أي "تجريد خشبة المسرح من إثارته المستمدة من الموضوع" كما يقترح فالتر بنيامين،<sup>١٠</sup> وإحالة "الجمهور" دوماً إلى الأثر الأخلاقي المشتبه من المسرحية عبر مفهوم "التوسيع الملحمي"، الذي قابله التوسيع الجمالي عند درويش، عمل بريخت على عدة تقنيات مسرحية - ابتداءً من كتابة النص وانتهاءً بالإخراج - تهدف إلى إحداث برزخ عاطفي بين إيمان الجمهور إلى الممثلين، وانحيازهم إلى القضية الأخلاقية التي يعمل الممثلون على سبورها في المسرحية، وذلك على نحو يترك للجمهور فاعلية جمالية خاصة بهم لا تُفرض على ميولهم الحياتية (سياسياً) ومشاربهم الذوقية (جمالياً). وفي سبيل إنجاح تلك المركزة لدور الجمهور، أدخل بريخت عدة أساليب تستدرج المألوفية وتستبعد التعاطف، أهمها: هدم الجدار الرابع (للمسرح) وفتحه في اتجاه الجمهور كي يكون عنصراً مركزياً فيه؛ حمل الجمهور على الاغتراب عن الممثلين بدلاً من التماهي معهم؛ أمّا أقلها أهمية (من حيث الدرجة لا من حيث القيمة)، فهي المزج بين الأداء الوعظي والترفيه؛ اللعب على الأزمنة والأمكنة

الفلسطينيين في الاحتفاظ بالبطل القديم، وعلى الرغم من العناد الوثائقي للخطاب النقدي المصاحب لتظاهرات الأدب الفلسطيني الجديد في مرحلة ما بعد أوسلو، والذي لا يزال يُذكر بعدم تحقق مهمة منظمة التحرير الفلسطيني بعد (وهي التحرير)، فإنه يبدو أن التيارات السائدة حققت نجاحاً أكبر في تفكيك البطل، وتحويله إلى "إنسان طبيعي"، لكنها لم تستطع تحويل شروط حياته لتصير "حياة طبيعية"، ذلك بأن هؤلاء الأبطال لم يتمكنوا من إنهاء الاستعمار الصهيوني لفلسطين كي تصير حياة الفلسطينيين طبيعية. وتتمظهر متلازمة غاليليو على "مسرح الحياة الفلسطينية كحالة "فرجة" ملهاوية تقصُّ المأساة بأدوات نيوليبرالية تمنح "البطل"، ثقافياً كان أم عسكرياً، تقاعداً مبكراً (وهذا، في أي حال، أمر حقيقي وشائع جداً في القطاع الحكومي الفلسطيني، وليس مجازاً) في سبيل "إسعاده" (، بينما هو) وهو لا يزال يعيش في بلد مستعمر "تعييس". وعليه، فإن "البلد" / فلسطين لا يزال بحاجة إلى أبطال لنفي تلك الحالة، كما يؤسس بريخت في إهاب غاليليو، وبدلاً من ذلك يُفرض عليه "أبطال" لا مهمة لهم إلا نفي البطولة عسكرياً وجمالياً؛ أبطال غير قادرين على تفسير العالم، فضلاً عن عدم قدرتهم على تغييره.

هنا، تبرز صورة جديدة للبطل الفلسطيني: بطل خارج لتوه من إطار الصورة بعد أن ملَّ من دوره، بصفته لا - بطل، أو بطلاً مضاداً (antihero)، كشخصية تتوسط شخصيتي البطل والوغد، لا يتحلى بصفات البطولة التقليدية من شجاعة وإقدام وإيثار وتراجيدية مصير أو مجد، وإنما له سمات إنسانية عادية تختلط فيها الفضائل والرذائل على نحو "طبيعي". وهنا،

ضعفهم، لا بسبب وطنيتهم وعدم طيبتهم - ضعفهم في تشخيص المتلازمة، وعجزهم عن مواجهتها بالحقيقة التي وضع لنا بريخت خمس صعوبات دونها، ذلك "بأن من يريد اليوم مكافحة الكذب والجهل، ومن يريد كتابة الحقيقة، فعليه على الأقل أن يتغلب على خمس مصاعب: عليه أن يتحلى بالجرأة على كتابة الحقيقة، رغم أنها تُضطهد في كل مكان؛ وأن يمتلك الذكاء للتعرف عليها، رغم أنها تُخفى في كل مكان؛ وأن يملك فن استخدامها كسلاح؛ وأن يكون قادراً على الحكم باختياره أولئك الذين تصبح الحقيقة في أيديهم فعالة؛ وأن يمتلك الدهاء لنشرها بين هؤلاء."<sup>١٢</sup>

هنا، لم نتغلب على صعوبات قول الحقيقة فحسب، بل عجزنا أيضاً عن فهم معنى البطولة في المعجمية العربية في توكيد هذه المتلازمة. فجزر "ب - ط - ل"، يفيد: العبور، ونفي العرف، والخروج على العادة، وقلّة الفائدة، واللاجدوى.<sup>١٣</sup> فالبطل "هو ذهاب الشيء وقلّة مكثه ولئنه"، والبطل يذهب بحياته فلا يمكث إلا قليلاً. ولعل "قلّة المكوث" هي لحمة البطولة وسداها، لأن البطولة خروج عابر على السياق، قليلة المكوث فيه لكن أثرها ينطبع في سياقات الزمان والمكان تبعاً لمقدار خروج البطولة وخارجية البطل. وبذا، يكون الباطل نقيض الحق، إذ يظهر كأنه خروج على مألوفية القاعدة العرفية التي تمت مأسستها بصفتها حقاً. وقد سُمّي البطل بطلاً لأنه يُبطل العظام بسيفه فيبهرجها، أو لعله سُمّي "بطلاً لأن الأشداء يبطلون عنده، أو تبطل دماء الأقران على يديه فلا يدرك عنده ثأر من قوم." جاء في سفر الجامعة أيضاً: "باطل الأباطيل كل شيء باطل"،<sup>١٤</sup> وأن الحياة وكدها إلى زوال، كناية عن اللاجدوى، واللاجدوى هي المعاني السائدة

المتغيرة (Heterotopias / Heterochronias):  
أخيراً إداخل الغناء بين المشاهد.  
هنا تبرز تقنية التغريب (verfremdungseffekt) في مسرح بريخت كي تميّزه من المسرح الأرسطي القائم على تماهي الجمهور (identification) مع الممثلين إلى حدّ تطهيره (catharsis)، من خلال تماهيه مع مأساة الممثلين عبر العناصر المركزية للملهاة الأرسطية.<sup>١١</sup> وقد بقي هذا الفهم مسيطراً قرابة ألفي عام حتى جاء بريخت بالمسرح الملحمي الذي كان نقيض هذا التعريف تماماً، وهو المسرح الذي صبغ العالم الجديد والزمن الجديد الذي بشر به بريخت.

في المفهوم البريختي، أو اللا - أرسطي للدقة، تصاغ مبادئ ناظمة أهمها رفض تراجمية التاريخ وحتميته، والتغيّر الدائم الذي يحكم كل شيء بمن فيه الإنسان، الأمر الذي يستدعي وجود إنسان يمثل وحدة متناقضات (فضائل وذنابل) لا تقود مساعيه - بالضرورة - إلى تقدّم الإنسانية. ولا تستحق - بالضرورة - تعاطف الجمهور الذي يكون بمثابة تطهير عبر الخوف والشفقة. ففي مسرح مثل هذا، تأتي شخصية غاليليو كوحدة متناقضات، وكشخصية تتبدل فيها معاني البطولة بين: أول المسرحية (المواجهة)، ووسطها (المواجهة ومعرفة النظام وتجنّبه)، وآخرها (تجنّب المواجهة لأجل الحقيقة التي هي العلم)، حتى لو تم اغتيال الحق، الذي هو الأخلاق.

إن تشخيصاً متأنياً لـ "متلازمة غاليليو" في الساحة الفلسطينية اليوم، يفيد بأن الطيبين من الوطنيين الفلسطينيين، الذين يواجهون أشقاءهم الفلسطينيين من التيارات المصابة بهذه المتلازمة، وكما أسس بريخت، قد هُزموا أمامها بسبب



"واقع" البطل العسكري في خيار الكفاح المسلح، فإن لحظة سنة ٢٠٠٣ حاولت تغييب "فكرته" تماماً، ذلك بأن القراءة السائدة لانتفاضة الأقصى، بصفتها "دقت المسمار الأخير في نعش الكفاح المسلح"، لم تقتصر على "تفكيك البطل" العسكري، بل جاوزته إلى "تفكيك فكرة البطولة / القضية" التي تشكل البطل العسكري من أجلها، وهي فلسطين، فلم تعد حالة استعمارية تحارب فيها الحركة الوطنية الفلسطينية - كحركة تحرر لم تحقق غايتها، وهي تحرير فلسطين - الحركة الصهيونية بصفتها حركة استعمارية أنجزت هدفها في قيام دولة إسرائيل العنصرية. والأخطر في هذه العملية إنما كان إدخال خطاب الهزيمة على الساحة الفلسطينية. وقد جاء هذا الخطاب، ومن حيث لم يحتسب الفلسطينيون ولا المثقفون الذين حاوروا درويش قبل أقل من أربعة أعوام و"تصالحو" على أن "البطل ملّ من دوره"، في ظل المنظومة الثقافية والسياسية ما بعد الاستعمارية التي اجتاحت الخطاب الفلسطيني مستبدلة سياسات الذاكرة بسياسات النسيان. وهنا، يمكن استدعاء مقولتين تشكلان تناقضاً في هذا الخطاب الثقافي الفلسطيني المرتبك والموازي للخطاب السياسي: تتمثل المقولة الأولى في الدعوة التي وجهها مثقفون فلسطينيون، وعلى رأسهم محمود درويش وإدوارد سعيد، إلى الإسرائيليين، مثقفين وغير مثقفين، في ١٣ آذار / مارس ٢٠٠٢، في إعلان على صدر صحيفة "هآرتس" الإسرائيلية، فحواه: دعوة إلى وقف الأعمال العسكرية، من "الجانبين"، ورضى الفلسطينيين بالعيش في أقل من خمس فلسطين التاريخية، على الرغم من أن السيف لم ينتصر يوماً على العدالة، وإن طال أمد تحققها.<sup>١٧</sup> أمّا المقولة الثانية

للبطولة، ذلك بأن "الباطل" هو الخالي من الفائدة. وسُمي الشيطان الباطل لأنه لا حقيقة لأفعاله، وكل شيء منه فلا مرجوع له ولا مَعْوَل عليه، ومنه "﴿ مَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾"<sup>١٥</sup> ولذا جاء، في آية أخرى، أن الباطل هَش، متهاك في وجه الحق: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾"<sup>١٦</sup> ومن هنا، ربّما، جاءت كلمة بَطْل، بمعنى فسد وسقط حكمه، وربما اشتق من هذا السياق، كذلك، اسم الجمع "البَطَلَة"، وهم السَحَرَة، كناية عن إبطالهم فعل الصفات والخواص في الأشياء والذوات، فيخرقون بذلك طبيعة الأشياء.

بين الاسم والفعل تتجلى في المعجمية العربية أكثر معاني البطولة رواجاً، إذ على عكس الرأي السائد أن "بطل" لا فعل فيها، فإن ثمة مَنْ يجعلونها فعلاً ثلاثياً لازماً: بَطَلْتُ، بمعنى استبسلت في الحرب؛ لكن الرأي القائل إن لا فعل لها، إنما يحيل إلى أنها وصف لمجموعة من السمات والقيم، وليست فعلاً بذاتها، لأن البطولة قيمة وليست فعلاً. لكن "البطولة" عندما تخرج من حدّ خرق العادي إلى حدّ محاكاته، أو بالأحرى مجاراته، تحقق نفيها الخاص، فتَبَطَّل نفسها، وتصير اعتياداً، وبذا، ينتهي البطل ولا ينتفي فقط. وهنا، تعود البطولة إلى معناها الأول، بصفتها باطلاً قليل المكث والفائدة، ونقيضاً للحق بعد أن كانت لردح من الزمن هي أذنه وذروة سنامه.

### III - في معاني البطل والبطولة

#### في فلسطين الجديدة

#### ١ - البطل الثقافي يجهض البطل

##### العسكري

إذا كانت لحظة أوصلو في سنة ١٩٩٣، ثم تعديل الميثاق الوطني في غزة، قد أجهضا

الانتصار، ليسا قيمةً في حدّ ذاتهما، بقدر ما هما إعلاء لقيمة الحياة الحرّة في الذات الفلسطينية المستعمرة حين تصرع مستعمرها، كما أسس جان بول سارتر في مقدمته لكتاب فانون، "معذبو الأرض": "إنّ المواطن من السكان الأصليين لا يشفي نفسه من العصاب الاستعماري إلاّ بطرد المستوطن بقوة السلاح... فعندما ينفجر غضبه بعد اكتشاف براءته ويصبح قادراً على معرفة نفسه، من حيث إنه هو الذي يخلق نفسه... إن إطلاق النار على أوروبي هو بمثابة قتل عصفورين بحجر واحد، إذ يُقتل في آن معاً رجل ظالم والرجل الذي يخضع لظلمه."<sup>٢١</sup>

## ٢ - ترجمة البطل المفك كسلعة ثقافة

### في المركز الاستعماري

أمّا على صعيد المختارات الثقافية، وخصوصاً تلك المنشورة بلغات أجنبية، فلا شك في أنها تخضع لمنظومة تتداخل فيها السياسات الثقافية الفلسطينية المحلية، بما فيها من أجندات سياسية وثقافية أضيء عليها (وإن لم تتم الإضاءة بالتفصيل، في هذه الدراسة، على أهمية العلاقات الشخصية ورأس المال الرمزي لمن يروّج لهم في الترجمات الغربية أو الزمالات والاستضافات العالمية ممّن فازوا بجائزة مهمة كجائزة الكاتب الشاب التي تمنحها مؤسسة عبد المحسن القطان، على سبيل المثال لا الحصر)، كما تخضع لسياسات ثقافية غربية تتمين، لعالميتها، بـ "قيم استعلائية" صنمية تنطلق من المركز الغربي الاستعماري، وتحتمك، في الغالب إلى معايير المتعلقة بقضايا الصراع والحرية في العالم، والتي تحتل فلسطين موقع الصدارة منها.

وتتخذ هذه السياسات الثقافية

فتمثلت، وعلى عكس المتوقع، في إعادة الاعتبار إلى كل من البطل الثقافي والبطل العسكري، في آن معاً، من خلال قصيدة درويش "القربان" لمحمد الدرة (التي نشرها مرة في مجلة "الكرمل" ولم ينشرها في أي من مجموعاته الشعرية)<sup>١٨</sup>، ومراثي درويش للرئيس ياسر عرفات، قبل اغتياله وبعده، مقارنة بمديحه خارج "مديح الظل العالي" بعد الخروج من بيروت في سنة ١٩٨٢،<sup>١٩</sup> ودعوات "يا أيها البطل الذي فينا تمهّل" ("مأساة النرجس") إلى "لم تقاتل لأنك تخشى الشهادة، لكن عرشك نعشك، فاحمل النعش كي تحفظ العرش يا ملك الانتظار" ("أحد عشر كوكباً")، إذ تم تقديم الدرة وياسر عرفات كأبطال / ضحايا في إهاب الفلسطيني الأول - السيد المسيح.

إن قراءة متأنية لهاتين المقولتين، في اللحظة التاريخية ذاتها، وهي انتفاضة الأقصى، تفصح عن ضرورة إعادة النظر في التشابك الحتمي، إلى حدّ الاشتباك، بين "البطل العسكري" الذي لم يقصده درويش في حوارية بيت الشعر الفلسطيني في سنة ١٩٩٩، و"البطل الثقافي" الذي عاد درويش، عبر ثلاثية (الدرة - المسيح - عرفات) إلى تأكيد حضوره على نحو لا فرار منه في سنة ٢٠٠٢. ولعل تحرير انتفاضة الأقصى من تلك القراءة هو ضرورة وطنية، قبل أن يكون ضرورة جمالية، وخصوصاً في ظل وجود أمثلة ميدانية نافية لتلك القراءة، كمثال معركة مخيم جنين خارج الصورة والأسطورة.<sup>٢٠</sup> ففي تجربة معركة مخيم جنين ما يحفز على استدعاء تجربة الكفاح المسلح، لا فكرته فقط - كتجربة يمكن أن توحد بين جمالية البندقية كاداة لقهر ظلم المستعمر، وفعالية وعي البندقية كقيمة تحررية للتغلب على خوف المستعمر - ذلك بأن قتال العدو الصهيوني، ومحاولة



دون وعي، أو بوعي، بسبب الافتراضات الإمبريالية الخفية التي تقوم على تشجيع الفردية النسائية باعتبارها الخير الأعظم، ومن دون أي تحديد تاريخي لذلك "الخير". وبالتالي، فإن موقع امرأة العالم الثالث إنما يكون عالقاً بين شكلين من أنظمة السيطرة والإكراه: النظام الأبوي الكلاسيكي في المجتمعات الأم (ما بعد الاستعمارية)، والنظام الأبوي الإمبريالي الذي يُصدّر القيم العليا لحركته النسائية ولقيمه الذكورية في تصنيف المرأة في مجتمعه الرأسمالي ومجتمعات مستعمراته السابقة على حد سواء. وبذا، فإن سببناك تعتقد أن امرأة العالم الثالث "التابعة" حُرمت من الفضاء الذي تستطيع أن "تتكلم فيه" مرتين: مرة وهي رهينة المحبس الأبوي، ومرة وهي رهينة محبس الذائقة الإمبريالية. إن الذين يقبلون بالتصوّر النيوليبرالي، الممركز غربياً، وغير القادرين على مواجهة الرأسمالية الثقافية، أو بالأحرى غير الراغبين في مواجهتها وقد غيروا مواقعهم يميناً ويساراً ووسطاً، وفي غمرة انشغالهم بخلق "الفلسطيني الجديد"، موضوعاً للاستهلاك لا ذاتاً منتجة للقيم، إنما يستعدون، حتماً، مقولة بريخت: "إن مثل الذي يناهض الفاشية دون أن يعادي الرأسمالية، ومن يتأسف على البربرية، كمثّل من يريد أن يؤمن حصته من الخروف ولكن دون أن يذبح الخروف. يريدون أكل الخروف، ولكنهم لا يريدون رؤية الدم. ويمكن إرضائهم بأن يغسل الجزار يديه قبل أن يقدم لهم اللحم. إنهم ليسوا ضد علاقات الملكية التي تنتج البربرية، إنهم ضد البربرية فقط، وإنهم يرفعون أصواتهم ضد البربرية، وهم يفعلون هذا في بلدان تسود فيها علاقات ملكية مشابهة، لكن الجزارين هناك ما زالوا يغسلون أيديهم قبل تقديم اللحم."<sup>23</sup>

العالمية - مستندة إلى مرجعيات شخصية في الساحة الفلسطينية، من قيم الحرية الفردية، والخروج على النزعة الجمعية، وخطابات المهمشين (بمعايير التهميش الغربي لا الفلسطيني) - معايير للانتشار في الحاضنة الثقافية الغربية السعيدة برأسماليتها المتأخرة التي اغتصبت قيم ما بعد الحداثة. ولا شك في أن هذه الظاهرة لا تختص بها فلسطين، بل تنطبق على معظم المستعمرات السابقة في العالم الثالث، وقد حظيت بنقد هائل من قبل منظري ما بعد الاستعمار، ولا سيما "مجموعة دراسات التابع". ففي هذه المجموعة تم توجيه نقد لاذع إلى هذا الاتجاه القائم على اتباع الموضة لدى المستعمرين وإمكان استغلاله و"تسليعه" في المراكز الإمبريالية، حيث تضافرت جهود كل من المنظرتين تشاندرا موهانتي وغياتري سببناك في نقد الاستخدام الأداتي لنتائج أفراد من العالم الثالث في السياقات الغربية.<sup>24</sup> فمن ناحية أولى، ترى موهانتي أن إنتاج امرأة العالم الثالث، مثلاً، يؤخذ ويترجم باعتباره موضوعاً واحداً مفرداً وموحداً حين يتم استخدامه في الدراسات والمختارات الغربية. وبذا، تؤكد الطرق التي يشكل بها العلم الغربي نساء العالم الثالث على هيئة جماعة متجانسة، ثم يستخدمها بعد ذلك باعتبارها نسق تحليل على أساس من الكليات الاجتماعية والإنسانية المعنية التي تتغاضى عن السياقات الثقافية والتاريخية لـ "بلاد المنشأ". وعليه، تفترض موهانتي أن هذا هو عين الإخضاع الاستعماري الأبوي، لكن بصورة ناعمة، لأنه يعلي من شأن المرأة في الوقت الذي يُسلع إنتاجها على نحو استعماري رخيص. أمّا سببناك، فتقول إن إنتاج نساء العالم الثالث المترجم يعاد إنتاجه من

حملها في السابق سعيد ودرويش وغيرهما. هنا، تنوعت ردود المثقفين الحاضرين، لكنهم، في أغلبيتهم، أكدوا أن الفلسطينيين لا يرغبون في تحويل فلسطين إلى مجاز يمكن تسليعه، وخصوصاً عبر الحركتين الفنية والثقافية الفلسطينية، ذلك بأن المشروع الثقافي الذي حمله سعيد ودرويش رافقه مشروع سياسي لحركة التحرر الوطني الفلسطيني أجهز عليه اتفاق أو سلو وما تلاه من تداعيات. وكان درويش نفسه من أهم دعاة الخروج من حدّ المجاز إلى حدّ الحقيقة معلناً أننا مصابون بداء لا شفاء منه، هو الأمل. كما أكد درويش، مراراً وتكراراً، أنه لا يمكن تحقيق حياة طبيعية (للفلسطينيين) في ظل وجود لا طبيعي (إسرائيل)، لا بتفهم التعاطف العالمي مع اليهود جرّاء المحرقة النازية، ولا بتقديم معونة أخلاقية للجلاد الصهيوني الذي لم، ولا يمكن، ولن يكون مقدساً.<sup>٢٥</sup> وبما أن مشروع منظمة التحرير الفلسطينية (منذ أواسط ستينيات القرن الماضي حتى أواخر ثمانينياته)، الذي كان مشروعاً منادياً بالـ "الحقوق السياسية" للفلسطينيين في مختلف أماكن تواجدهم، قد تراجع إلى أدنى مراتبه بعد أو سلو، فإن ثمة خشية من أن تتحول فلسطين إلى مجاز بلا حقوق سياسية في العالم. وعليه، فإن حركات التضامن العالمي، ولا سيما المنغمسة منها في الحقل الثقافي خاصة، وهي تدفع مجاز فلسطين إلى مواقع متقدمة في الوعي الإنساني، يجب ألا تكتفي بالدفاع عن المجاز، بل بالدفاع عن حق الفلسطينيين في نيل حقوقهم السياسية أيضاً.

### ٣ - كسوف فلسطين وكسوف البطل

نتيجة هذا التضافر الجدلي بين "تفكيك البطل العسكري" و"تفكيك البطل الثقافي"

ولعل من الطريف الإشارة، من جهة أخرى، إلى أن هذه التيارات المتعددة التي يتم تسليع الإنتاج الثقافي غربياً لبعض أفرادها، يمكن أن تتمظهر في اجتماع عادي بين مثقفين فلسطينيين، بعضهم من دعاة تفكيك البطل وبعضهم من دعاة فولذته، وبين مثقفين غربيين متعاطفين مع القضية الفلسطينية. ففي الاجتماع الذي ضمّ الفيلسوفين جوديث بتلر وإتيان باليبار ومثقفين فلسطينيين في مركز خليل السكاكيني (في صالة تشكّل أرضيتها سقف مكتب درويش، للمفارقة)، جرى سؤالهم عن موقفهم، كمثقفين تقدميين في الحاضنة الأكاديمية والثقافية الغربية، من فلسطين ودورهم في قضيتها، وما هي توقعاتهم من المثقفين الفلسطينيين.<sup>٢٤</sup> وأشارت بتلر إلى أنه لا خلاف بشأن التضامن العالمي، وأنه ليس ثمة أخلاقية في "التوسط" في الآراء، أو "الوساطة" في الممارسة بين المستعمر والمستعمر، ذلك بأن السؤال في الحالة الفلسطينية يجب أن يتركز على توحيد الجهود لبناء أكبر تحالف عالمي لنصرة القضية الفلسطينية (كأمثلة لقضايا التحرر في العالم)، ولمقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها، بينما ينجز الفلسطينيون، مثقفين وغير مثقفين، مشروع مقاومتهم مثلما يشاؤون. أمّا باليبار، فأشار إلى أنه "أقل حركية ونشاطاً من بتلر"، غير أنه أيد سابقاً، ولا يزال، نداء حركة المقاطعة العالمية (BDS)، ونداءات مشابهة، لكنه يعتقد أن ثمة فرصة أخرى أمام الفلسطينيين (غير نمط العمل "السلبى" وهو الفعل ضد إسرائيل)، وذلك عبر نمط العمل "الإيجابي" وهو الفعل لأجل فلسطين بالعمل على إعادة تفعيل صورة فلسطين في الساحة الثقافية العالمية، وحملها إلى المحافل الدولية كما

أدى إلى "كسوف فلسطين"، أي اختفاء التآطير الميثاقي لها جغرافياً، وديموغرافياً، وثقافياً على نحو متدرج، واستبداله بتآطير آخر أبعد ما يكون عن التعبير عن التجربة الفلسطينية الجمعية من حيث المظالم والحقوق. وللتوضيح، فإن "كسوف فلسطين" هو تشكيل نظري على وزن "كسوف الله" في فلسفة مارتن بوبر، إذ كُست فلسطين وراء منظمة التحرير الفلسطينية، وصار تعريف فلسطين مستنداً إلى مقررات "الشرعية الوطنية" التي تمثلها منظمة التحرير الفلسطينية وتنفيذها في آن معاً، وقد تواصل هذا الكسوف على يد النخب الثقافية الفلسطينية التي عززت الخيارات السياسية الفلسطينية بتفكيك البطل العسكري، بخيارات ثقافية تقضي ليس بتفكيك البطل الثقافي فحسب، بل تفكيك فكرته - القضية أيضاً.

شَخَّص بوبر الإنسان الحديث، وكان اليهود في ذهنه، بأنه يحيي إشكالاً دينياً يفضي إلى إشكالات في الوجود وسياساته. ويتمثل ذلك في ارتفاع "وعيه" بنفسه كوصي على مملكة الرب، وكعابد صالح، وتقي ينسى ربه تماماً وهو يعمل لقضيته، الأمر الذي يسبب انشغالاً بدواخله عندما يتجه ناحية الرب. وهذا الوعي بالذات الذي "تورم على نحو بالغ الحدّة"، كما يؤسس بوبر، تحرك ليقف بين وجود هؤلاء ووجود ربهم أو ما يقدّسونه، كما يقف القمر بين الأرض والشمس، فيتحقق عندها "كسوف الله"،<sup>٢٧</sup> على نحو يشبه مفهوم "السوى"، أي كل ما سوى الله، ووقوف "السوى" بين العبد وربّه عند النَّفْري الذي قال إن غاية المؤمن أن "لا يكون بينه وبين الله بَيْنٌ"، أي أن ينعدم إمكان الكسوف الذي عمل بوبر على توصيفه.<sup>٢٨</sup> ولذا، فإن بعض المتقنين الفلسطينيين، في حقبة ما بعد أوصلو، قطعوا

في آن معاً في خطاب النخبة الفلسطينية، يبدو كل من البطلين "مفهوماً فارغاً"، بلغة المنطق الشكلي، أي لا وجود له في عالم المعايينة على الرغم من وجوده في عالم الإمكان. لكن الورطة الأخلاقية في ذلك، لا تكمن في تفكيك البطلين فحسب، بل في تفكيك معنى البطولة الذي لا يستقيم من دون حضور الفهم الميثاقي للقضية الفلسطينية: أرضاً وناساً وحكاية. وبالتالي، تختفي فلسطين / "البلاد التعيسة التي تحتاج إلى أبطال"، من دون أن تظهر فلسطين جديدة خالية من الاستعمار / "لا تحتاج إلى أبطال". لكن هذا "الاختفاء" ليس اختفاء حقيقياً وسرمدياً، وإنما هو اختفاء مؤقت، أي أنه "كسوف فلسطين" وراء معنى فلسطين الذي تم تشكيله على أيدي النخبة الثقافية والسياسية ابتداء من لحظة "برنامج النقاط العشرة"، ومروراً بلحظة سنة ١٩٧٤ وخطاب الرئيس عرفات في الأمم المتحدة، وانتهاء بتوقيع اتفاق أوصلو وتعديل الميثاق وتفكيك البطلين الثقافي والعسكري بعد سنة ١٩٩٤.

هنا، تنوس فلسطين بين حدّ الخفاء (الناتج من الاستشراق الصهيوني الذي أسس نقده باقتدار إدوارد سعيد في قوله عن الصراع بين الوجود - الفلسطيني والتأويل - الصهيوني)، وحدّ التجلي (الناتج من الاستشراق الفلسطيني - المعبر عن شكل هذه المفاهيم التأسيسية في الحكاية الوطنية الفلسطينية، وتحولاتها، كما بلورتها سياسات منظمة التحرير الفلسطينية)، وأثرهما في الخيال الثقافي الفلسطيني بين ما "كانته" فلسطين وما "صارتها" في قصيدة درويش "على هذه الأرض ما يستحق الحياة": "كانت تُسمى فلسطين... صارت تُسمى فلسطين".<sup>٢٩</sup> ولعل هذا الجدل بين سياسات الخفاء والتجلي،

الفلسطيني نفسه، عسكرياً وثقافياً، وأراد أن يخرج من تراجيدية المصير التاريخي له، بينما أبقى المثقفون الصهيونيون على بطلهم سليماً معافى، بل تجاوز بعضهم، من أمثال عاموس عوز، ذلك مؤكداً، وعلى نحو مفارق، أن الصراع الفلسطيني - الصهيوني هو صراع بين "حقّين مطلقين"، إذ هو تراجيدياً أكثر من كونه فيلم وسترن غربي.<sup>٣١</sup>

#### ٥ - الحقيقة الفلسطينية والبطل المريض

##### بداء الأمل

إذاً، لم تنشأ الدعوات إلى "تفكيك البطل"، عسكرياً وثقافياً، في فراغ سياسي وثقافي، وإنما جاءت في مرحلة تحوّل نوعي في فلسطين نحو أنماط تفكير وإنتاج واستهلاك نيوليبرالية على كافة الصعد: سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً - وفي هذا السياق - ثقافياً أيضاً. هنا، أعلنت وفاة خيار الكفاح المسلح لمصلحة "المقاومة الشعبية السلمية"، وولد تيار نيوليبرالية ثقافية لا يدعو إلى "أنسنة البطل"، فحسب، بل إلى صناعة إنسان فلسطيني محكوم بقيم الليبرالية الجديدة أيضاً. وعلى الأرض، اقتضى تحوّل نمط المواجهة مع الاستعمار الصهيوني من "مقاومة عسكرية مباشرة" إلى "مقاومة شعبية سلمية غير مباشرة"، ليس انسحاب البطل العسكري فحسب، بل ضرورة اغتيال البطل الثقافي الذي يذكّر البطل العسكري بأن مهمته لم تنته بعد، أو على الأقل لم ينته هُمّه (الاستعمار الصهيوني الجاثم على صدر فلسطين والفلسطينيين)، إذا ما أراد البطل نسيان مهمته (وهي التحرير). لم يقرأ هؤلاء فانون، وربما قرأوه لكنهم لم يدركوا مقولته - القاعدة: "إن مهمة المستعمر تكمن في جعل حتى أحلام التحرر مستحيلة بالنسبة إلى المستعمرين،

أشواطاً متقدمة في مرض كسوف الله البوبري لدرجة صاروا هم الرب العارف بمصلحة الفلسطينيين وصورتهم الجمالية دون سواها على نحو غيّب فلسطين، وجرّد الفلسطيني من أهم مقومات فلسطينيته: من كونه ضحية المشروع الاستعماري الصهيوني الذي يسعى لتغيير الشرط التاريخي الذي جعله ضحية، إلى مطالبته بنبذ دور الضحية من دون أن تنتهي مظلمته التاريخية التي جعلت منه بطلاً.

#### ٤ - تفكيك البطل الفلسطيني وتمجيد

##### البطل الصهيوني

إن قراءة سجلات تفكيك / البطل في الساحة الثقافية (والسياسية) الفلسطينية تشير إلى أن التيار السائد في الثقافة الفلسطينية الرسمية، والمجموعات القريبة منه، توقفا عن النظر إلى الحركة الصهيونية بصفتها حركة استعمارية، وإلى إسرائيل بصفتها دولة استعمار استيطاني عنصري يجب تفكيكها (أي حين صارت حركة التحرر الوطني نسخة من الحركة الصهيونية بعد أن كانت نقيضة لها)<sup>٣٢</sup>، بينما لم تتوقف الحركة الصهيونية ولا دولة الاستعمار الاستيطاني - إسرائيل عن النظر إلى الفلسطينيين كخطر ديموغرافي على أمنها، وضرورة التخلص منهم. ومن المفارقة أن الذين يقولون بهذا التشخيص هم أنفسهم من يرون الحل في استبدال المشروع السياسي "المركز حول الدولة" بمشروع سياسي "مركز حول الإنسان"، وفي إطار حالم يقوم على: مناقضة حصرية الفكرة الصهيونية، وتساوي الحقوق عبر طرق التفاوض بين الجماعتين القوميتين، واستبدال الكفاح المسلح بالمقاومة الشعبية - على أن تضمن هذه العناصر حق العودة وإقامة الدولة وتقرير المصير.<sup>٣٣</sup> وعليه، فقد فكك البطل

الأفق والشاشات التي ترقب الفلسطيني الأخير وهو يصعد الجلجلة. هنا، تكتمل مأساة البطولة الفلسطينية بملهاة لا تبدو فلسطينية على الإطلاق - بفصل تاريخي قاتم يُقصي بطلاً محكوماً بالأمل الذي لا يمكن إلا أن يكون طباقاً وجودياً ولغوياً مع الأمل، وينشئ بطلاً ليس في إمكانه إلا إعلان خيبة الأمل، لا كوعي تاريخي بفشل تحقق مشروع التحرر، وإنما كجهد نيوليبرالي للدخول في التسجيل التاريخي لـ "الإنسان" كما صكته الحداثة الغربية، وأكدته أئنة ما بعد الحداثة. هنا، في فلسطين، صار الأمل لحظة غير تاريخية (لأنه توهم فردي)، بينما أصبحت خيبة الأمل (لأنها تواطؤ جماعي) ليست لحظة تاريخية فحسب، بل "التاريخ" الجديد لبطل غير مصاب بداء الأمل أيضاً. يا له من فلسطيني، هذا الذي لم يمتلك منظار غاليليو؛ يا له من فلسطيني، هذا الذي لم يمتلك قناع بريخت... تعيس هو البلد الذي ليس فيه أبطال! ■

(بينما تكمن) مهمة المستعمر في تخيّل جميع الطرق التي يمكن من خلالها إنهاء المستعمر.<sup>٣٢</sup> وعلى ذلك، يبدو أن المثقفين الفلسطينيين النيوليبراليين غير قادرين لا على الحلم ولا على التخيّل! وعليه، فإن بطل درويش "الذي ملّ من دوره" جمالياً، وأراد أن يعيش طبيعياً في حياة طبيعية، ليس، على الإطلاق، هو البطل الثقافي في عصر الليبرالية الجديدة في فلسطين الجديدة. فبطل درويش "مصاب بداء اسمه الأمل"، وحقوقه بسيطة وواضحة في الحرية وإنهاء الاحتلال، لكن بطل الليبراليين الجدد "بطل معافى" من داء الأمل الفلسطيني بفلسطين القديمة. لم يملك أرسطو تلسكوباً ليرى تلاميذه، ولم يحتج غاليليو واحداً ليرى الأرض، ولم يناقش بريخت أحداً في جدوى التلسكوب لتحديد دقة الترجمة - ومثلهم جميعاً، لم يطالب درويش، مرةً، محاوريه، بتلسكوب ليرى حقيقة الاحتلال الجاثمة على الأرض الفلسطينية وأثرها الدموي يملأ

## المصادر

- ١ للمزيد، انظر الموقع الإلكتروني لمؤسسة تامر للتعليم المجتمعي: <http://www.tamerinst.org/ar/home>
- ٢ للمزيد، انظر: عبد الرحيم الشيخ، "التنمية الميثاقية كأفق تحرري: حول التنمية وثقافة المقاومة في فلسطين"، في ناجح شاهين (تحرير)، "دراسات في واقع التنمية في فلسطين" (رام الله: مركز بيسان للبحوث والإنماء، ٢٠١٣)، ص ١٥٥ - ١٩٦.
- ٣ مراد السوداني (تحرير)، "خارج سياق النهر: الأصوات الجديدة في فلسطين - مختارات" (رام الله: بيت الشعر الفلسطيني، ٢٠٠٥)، ص ١٢ - ١٣.
- ٤ للمزيد، انظر موقع "فلسطين الشباب" الإلكتروني: <http://www.filistinashabab.com>

- ٥ انظر، "مبادرة بسطة إبداع الشبابية، ملخص إنجازات (بسطة إبداع)"، في موقع "دنيا الرأي" الإلكتروني، في الرابط التالي:  
<http://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2013/01/08/282107.html>
- ٦ انظر الموقع الإلكتروني لـ "الملتقى التربوي العربي . فلسطين":  
<http://aefpalestine.wordpress.com/>
- ٧ للمزيد، انظر موقع "قديتانت" الإلكتروني:  
<http://www.qadita.net/>
- ٨ للمزيد، انظر موقع "شبكة قدس الإخبارية" الإلكتروني:  
<http://www.qudsn.ps/>
- ٩ للمزيد بشأن هذه الحالة النفسية التي اهتمت بها نظريات التلقي في النقد الأدبي والمسرحي، انظر:  
 Roma Chatterji, "The Voyage of the Hero: The Self and the Other in One Narrative Tradition of Purulia", *Contributions to Indian Sociology*, vol. 19, no. 1 (1985), pp. 95–114.
- ١٠ للمزيد، انظر: فالتر بنيامين، "مقالات مختارة"، ترجمة أحمد حسان (عمان: دار أزمنا، ٢٠٠٧).
- ١١ انظر: لميس العماري، "المفاهيم الأساسية لمسرح بريخت"، في: برتولد بريخت، "درامية التغيير: دراسات مختارة في المسرح الملحمي"، إعداد وترجمة قيس الزبيدي (دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر، ٢٠٠٤)، ص ٣٦.
- ١٢ بريخت، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٩.
- ١٣ انظر: أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، "لسان العرب"، المجلد ١١ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٤)، ص ٥٦ - ٥٧.
- ١٤ "العهد القديم"، "سفر الجامعة"، الإصحاح ١، الآية ٢.
- ١٥ "القرآن الكريم"، "سورة سبأ"، ٣٤ آية ٤٩.
- ١٦ "القرآن الكريم"، "سورة الأنبياء"، ٢١ الآية ١٨.
- ١٧ بشأن ظروف إصدار هذا البيان، والردود عليه، إلى جانب الزيارة التي قام بها وفد من الكتّاب العالميين لرام الله، انظر: عادل سمارة، "مثقفون في خدمة الآخر - بيان الـ ٥٥ نموذجاً" (رام الله: مركز المشرق، العامل للدراسات الثقافية والتنمية، ٢٠٠٣)؛ وانظر أيضاً:  
 Motti Neiger and Ayelet Kohn, "A Three-Dimensional Model for Cultural Interpretation of Protest Performances: The Case of Protest Poetry in Israel During the Second Intifada", Paper presented at the annual meeting of the International Communication Association, Dresden International Congress Centre, Dresden, Germany, [http://citation.allacademic.com/meta/p91078\\_index.html](http://citation.allacademic.com/meta/p91078_index.html)  
 Amira Hass, "In Ramallah, Visiting Writers Stress the Power of Words", *Haaretz*, 26 March 2002, <http://www.haaretz.com/print-edition/news/in-ramallah-visiting-writers-stress-the-power-of-words-1.49443>



- ١٨ محمود درويش، "القربان"، مجلة "الكرمل"، العدد ٦٦ (شتاء ٢٠٠١)، ص ٧ - ٩.
- ١٩ انظر: محمود درويش، "ياسر عرفات والبحر"، مجلة "الكرمل"، العدد ١٠ (١٩٨٣)، ص ٤ - ٩؛ محمود درويش، "حيرة العائد: مقالات مختارة" (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٧)، وخصوصاً مرثيتي ياسر عرفات، بعنوان: "ياسر عرفات: فاجأنا بأنه لم يفاجئنا"، و"تأخر حزني عليه".
- ٢٠ بشأن قراءة عسكرية وسياسية لمعركة مخيم جنين، انظر الرسالة الجامعية التي أعدها جمال حويل، أحد أبرز القادة الميدانيين للمعركة، إلى جانب الشهيد يوسف قبيها (أبو جندل)، النائب في المجلس التشريعي عن حركة التحرر الوطني الفلسطيني "فتح": "معركة مخيم جنين: التشكيل والأسطورة" (بيرزيت: جامعة بيرزيت، ٢٠١٢).
- ٢١ فيصل دراج، "الهوية، الثقافة، السياسة: قراءة في الحالة الفلسطينية" (عمّان: دار أزمنا، ٢٠١٠)، ص ٣٤.
- ٢٢ للاطلاع على مزيد من هذه السياسات، انظر: Chandra Talpade Mohanty, "Under Western Eyes: Feminist Scholarship and Colonial Discourses", *Boundary 2*, vol. 12-13, (spring - autumn 1984), pp. 333-358; Gayatri Chakravorty Spivak, *In Other Worlds: Essays in Cultural Politics* (New York: Methuen, 1987).
- ٢٣ بريخت، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٣.
- ٢٤ للمزيد، انظر: عبد الرحيم الشيخ، "جوديث بتلر وإتيان باليبار في فلسطين... ثانية: الصهيونية، فلسطين، وسياسات المقاطعة والمقاومة"، الجزء الثاني، جريدة "الأيام" (رام الله)، ١ أيار / مايو ٢٠١٢، في الرابط الإلكتروني التالي:  
<http://www.al-ayyam.com/article.aspx?did=190556&date=5/1/2012>
- ٢٥ درويش، "حيرة العائد"، مصدر سبق ذكره، ص ١٧ - ٢٢؛ وانظر أيضاً: Abdul-Rahim Al-Shaikh, "The Political Darwish: ... In Defense of Little Differences", *Journal of Arabic Literature* (Forthcoming).
- ٢٦ محمود درويش، "ورد أقل" (بيروت: دار العودة، ١٩٨٦)، ص ١١.
- ٢٧ Martin Buber, *Eclipse of God: Studies in the Relation between Religion and Philosophy* (New York: Humanities Press International, 1988).
- ٢٨ للمزيد، انظر: أدونيس، "الصوفية والسوريالية" (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٢)؛ يوسف اليوسف، "مقدمة للنقري: دراسة في فكر وتصوّف محمد بن عبد الجبار النقري" (دمشق: دار الينابيع، ١٩٩٧).
- ٢٩ Edward Said, *The Question of Palestine* (New York: Times Books, 1979), p. 28; Abdul-Rahim Al-Shaikh, "Palestine: The Tunnel Condition", *Contemporary Arab Affairs*, vol 3, no. 4 (2010), pp. 480-494.
- ٣٠ للمزيد، انظر: نديم روحانا، "الهوية الوطنية الفلسطينية والحلول السياسية"، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٨٩ (شتاء ٢٠١٢)، ص ٧ - ١٩.
- ٣١ Gila Ramras-Rauch, *The Arab in Israeli Literature* (Bloomington: Indiana University Press, 1989), p. 149.
- ٣٢ Frantz Fanon, *The Wretched of the Earth*, translated by Richard Philcox (New York: Grove Press, 2004), p. 50.

## المراجع

## بالعربية

- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم. "لسان العرب". المجلد ١١. بيروت: دار صادر، ١٩٩٤.
- أدونيس، علي أحمد سعيد. "الصوفية والسوريالية". بيروت: دار الساقي، ١٩٩٢.
- أوين، فريدريك. "برتولت بريخت: حياته، فنه، عصره". ترجمة إبراهيم العريس. بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٨١.
- البرغوثي، حسين. "محمود درويش: مغناطيس الهوية". "الشعراء"، العدد ٤ - ٥ (١٩٩٩).
- البرغوثي، فادي. "الاغتراب في السردية الفلسطينية: حسين البرغوثي نموذجاً". بير زيت: جامعة بيرزيت، ٢٠١٢.
- بريخت، برتولد. "حياة غاليلي". تعريب بكر الشرقاوي. بيروت: دار الفارابي، ١٩٨١.
- \_\_\_\_\_ "درامية التغيير: دراسات مختارة في المسرح الملحمي". إعداد وترجمة قيس الزبيدي. دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر، ٢٠٠٤.
- بنتلي، إريك. "المكارثية والمثقفون: شهادات أمام لجنة الكونغرس للنشاط غير الأمريكي". بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٨٠.
- بنيامين، فالتر. "مقالات مختارة". ترجمة أحمد حسان. عمان: دار أزمنة، ٢٠٠٧.
- الجراح، نوري. "شعراء من فلسطين الجديدة: شعراء الأشخاص بعد الأدوار والأرواح العارية بعد الأبطال الاجتماعيين". "الشعراء"، العدد ٦ (١٩٩٩).
- حمادة، إبراهيم. "محاكمة برتولد بريخت في أمريكا". في: إبراهيم حمادة. "آفاق في المسرح العالمي". القاهرة: المركز العربي للبحث والنشر، ١٩٨١.
- حويل، جمال. "معركة مخيم جنين: التشكيل والأسطورة". بيرزيت: جامعة بيرزيت، ٢٠١٢.
- دراج، فيصل. "الهوية، الثقافة، السياسة: قراءة في الحالة الفلسطينية". عمان: دار أزمنة، ٢٠١٠.
- درويش، محمود. "ياسر عرفات والبحر". "الكرمل"، العدد ١٠ (١٩٨٣).
- \_\_\_\_\_ "ورد أقل". بيروت: دار العودة، ١٩٨٦.
- \_\_\_\_\_ "سرير الغريبة". بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر، ١٩٩٩.
- \_\_\_\_\_ "محمود درويش: لا أحد يصل". "الشعراء"، العدد ٤ - ٥ (١٩٩٩).
- \_\_\_\_\_ "القربان". "الكرمل"، العدد ٦ (٢٠٠١).
- \_\_\_\_\_ "حيرة العائد. مقالات مختارة". بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر، ٢٠٠٧.
- روحانا، نديم. "الهوية الوطنية الفلسطينية والحلول السياسية". "مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد ٨٩ (شتاء ٢٠١٢).
- زقطان، غسان. "أكثرية الهامش". في: مجموعة من الشعراء. "ضيوف النار الدائمون: شعراء من فلسطين - مختارات شعرية". بيروت: رام الله: المؤسسة العربية للدراسات والنشر وبيت الشعر الفلسطيني، ١٩٩٩.
- سمارة، عادل. "مثقفون في خدمة الآخر. بيان الـ ٥٥ نموذجاً". رام الله: مركز المشرق، العامل للدراسات الثقافية والتنمية، ٢٠٠٣.

- السوؤانف؁ مراد. "مؤونة حسفن البرغوؤف فف قوانفن الشعر العربف". بفرفزف: ءامعة بفرفزف؁ 2012.
- السوؤانف؁ مراد (ؤرفرف). "ؤارء سفاق النهرف: الأصواؤ الءفءفة فف فلسطين- مؤؤاراء". رام الله: بفف الشعر الفلسطيني؁ 2005.
- السوؤانف؁ مراد ومحمؤ الرفشة (ؤرفرف). "شعراء فلسطين فف نصف قرن؁ 1950-2000: ءوؤفق أنطولوؤف". رام الله: المؤسسة الفلسطينية للإرشاء القومي وبفف الشعر الفلسطيني؁ 2004.
- "إفقااعات برفة - أنطولوؤفااء شعرفة عربفة (فلسطين)". الءزائر: منشوراؤ ءمعة البفف للؤقافة والفنون؁ 2007.
- الشفخ؁ عبء الرءفم. "مءائؤ نؤرفة فف هءاء الملك: الشعراء الشباف ومعركة الوصافة". "أقواس". العءء 1 (2001).
- "الؤنمفة المفاقفة كأفق ئرفرف: ءول الؤنمفة وؤقافة المقاومة فف فلسطين". فف: ءمموعة باؤئفن. "ءراساؤ فف واقع الؤنمفة فف فلسطين". ئرفرف ناءء شاهفن. رام الله: مرءز بففسان للبعؤ والإنماء؁ 2013.
- "الهوفة الؤقافة الفلسطينية: المءال؁ والؤمؤفل؁ والؤمائل". فف: ءمموعة من المؤلففن. "الؤجمعاؤ الفلسطينية وؤمءالاؤها ومسؤقبل القضافة الفلسطينية". رام الله: المرءز الفلسطيني لأبءاؤ السفاساؤ والءراساؤ الاسؤراؤففة - مساراؤ؁ 2013.
- العمارف؁ لمفس. "المفاهفم الأساسية لمسرح برفؤ". فف: برؤول برفؤ. "ءرامفة الؤففر: ءراساؤ مؤؤارة فف المسرح الملحمف". إعااء وؤرءمة قفس الزفبف. ءمشق: ءار ءنعان للءراساؤ والنشر؁ 2004.
- العهد القءفم.
- عوؤ؁ أءمء. "علاقاؤ هشة.. وءواؤ منفضلة". "الشعراء". العءء 6 (1999).
- القرآن الكرئم.
- مءمء؁ زءرفا. "مؤؤاراء من الشعر الفلسطيني - ءمموعة من الشعراء". "ءاب فف ءرفءة". العءء 14 (1998).
- الفوسف؁ فوسف. "مؤءمة للنؤرف: ءراسة فف فكر وؤصؤف مءمء بن عبء الءبار النؤرف". ءمشق: ءار الفنابفع؁ 1997.

### بالإنءلفزفة

- Al-Shaikh, Abdul-Rahim. *Beyond the Last Twilight: An Annotated Translation of Barghuthi's Autobiography al-Daw' al-Azraq (The Blue Light)*. PhD diss., the University of Utah, 2004.
- "Palestine: The Tunnel Condition". *Contemporary Arab Affairs*, vol. 3, no. 4 (2010).
- "The Political Darwish: In Defense of Little Differences". *Journal of Arabic Literature* (Forthcoming).

- Barghuthi, Hussein. *Lumière bleue*. Traduit par Marianne Weiss. Paris: Actes Sud Sindbad, 2004.
- Bekri, Tahar (éditeur). *Poésie de Palestine: Anthologie*. Paris: Al-Manar, Editions Alain Gorius, 2013.
- Biagini, Vittorio. “Presentazione”. In Francesca Maria Corrao (editore). In *un mondo senza cielo: Antologia della poesia palestinese*. Firenze: Giunti Editore, 2007.
- Brecht, Bertolt. *Brecht on Theatre: The Development of an Aesthetic*. Edited and translated by John Willett. London: Methuen, 2003.
- Buber, Martin. *Eclipse of God: Studies in the Relation Between Religion and Philosophy*. Reprint New York: Humanities Press International, 1988.
- Chatterji, Roma. “The Voyage of the Hero: The Self and the Other in One Narrative Tradition of Purulia”. *Contributions to Indian Sociology*, vol. 19 (1985).
- Corrao, Francesca Maria (editore). In *un mondo senza cielo: Antologia della poesia palestinese*. Firenze: Giunti Editore, 2007.
- Fanon, Frantz. *The Wretched of the Earth*. Translated by Richard Philcox. New York: Grove Press, 2004.
- Furani, Khaled. *When Poets Go to Sleep: An Anthropological Inquiry into Modernizing Arabic Poetic Forms*. PhD diss., City University of New York, 2004.
- Jayyusi, Salma Khadra. *Anthology of Modern Palestinian Literature*. New York: Columbia University Press, 1992.
- Khankan, Nathalie. *Breathing Sun-Drenched Horizons: The Possibility of Poetry in Post-Oslo Palestine*. Berkeley: University of California, 2009.
- Laidi-Hanieh, Adila (Editor). *Palestine, Rien ne nous manque ici*. Paris: Editions Cercle d’Art, 2008.
- Mohanty, Chandra Talpade. “Under Western Eyes: Feminist Scholarship and Colonial Discourses”. *Boundary 2*, vol. 12-13 (1984).
- “Palestinian Literature: Solidarity with Admiration”. *Banipal: Magazine of Modern Arabic Literature*, issue 15 & 16 (2002/2003).
- Ramras-Rauch, Gila. *The Arab in Israeli Literature*. Bloomington: Indiana University Press, 1989.
- Said, Edward. *The Question of Palestine*. New York: Times Books, 1979.
- Soo-Yeon, Oh (Guest Editor). *Asian Literary Magazine / Palestinian Literature Special*, vol. 5, no. 2 (2010).
- Soo-Yeon, Oh and Zakaria Mohammad (eds.). *Tears of Palestine*. Seoul: Asia Publishers, 2006.

- Spivak, Gayatri Chakravorty. *In Other Worlds: Essays in Cultural Politics*. New York: Methuen, 1987.
- "Writers from Palestine". *Banipal: Magazine of Modern Arabic Literature*, issue 45 (2013).
- Zaqtan, Ghassan. . *Le poème palestinien contemporain*. Traduit par Antoine Jockey. Hainaut: Le Taillis Pré, 2008.

### ملاحظات وتصويب

تلقت هيئة تحرير "مجلة الدراسات الفلسطينية" ملاحظة من عاذلة العايدى - هنية، بصفتها مديرة مركز خليل السكاكيني الثقافي في رام الله منذ تأسيسه في سنة ١٩٩٦ حتى سنة ٢٠٠٥، بشأن خطأ ورد في القسم الأول من دراسة عبدالرحيم الشيخ: "تحولات البطولة في الخطاب الثقافي الفلسطيني"، نوردها كما وصلتنا عبر البريد الإلكتروني:

"أود الإشارة إلى خطأ ورد في مقالة د. عبد الرحيم الشيخ في العدد الحالي [السابق] (العدد رقم ٩٦) لـ مجلة الدراسات الفلسطينية، والأمر يتعلق بكلام ورد في صفحة ٩١ عن زيارة الشاعر الليبي خالد المطاوع لفلسطين قبل عامين بدعوة من مؤسسة عبد المحسن القطان، حيث التقى بعض الشعراء الفلسطينيين في حينه.

"أود التنويه أن الشاعر والأكاديمي الليبي الأميركي د. المطاوع كان زار فلسطين سنة ٢٠٠٠ بدعوة من مركز خليل السكاكيني الذي كنت أديره آنذاك. وهذا للإشراف على ورشة كتابة إبداعية وذلك نظراً لتدريسه تلك المادة بجامعة أن آر بور بولاية ميتشيغان الأميركية. وكانت تلك الورشة الأولى من نوعها في فلسطين، وذهب العديد من المشاركين فيها إلى نشر أول أعمالهم بعد المشاركة فيها، أمثال الكاتبة عدنية شبلي والشاعر معن سمارة والمناضلة والكاتبة عائشة عودة. كما شارك في الورشة عدد من الشعراء أو الكتاب الذين سبق لهم أن نشروا أعمالاً، مثل الشاعر أنس العيلة والقاصّة إيمان البصير. كما شارك في الورشة عدد من الشباب الذي انتقل إلى العمل في الحقل الأكاديمي، مثل هديل كركر وديمة عبد اللطيف."

عاذلة العايدى - هنية